الفكر السياسي عند الإمام السجاد (عليه السلام)

م. م مازن قاسم مهلهل
مركز إحياء التراث العلمي العربي،جامعة بغداد
mazenkasam@yahoo.com

ملخص

إن قراءة شبه متأنية لبعض مواقف الإمام السجاد(عليه السلام) من الظالمين وأعوانهم ، وكذلك مواقفه من بعض الحركات الشيعية التي تفجّرت في زمانه ، وكيف انتقل من مرحلة التقية المؤلمة إلى مرحلة المواجهة الساخنة ، لا سيّما بعد أن استنفذ دوره التبليغي الصامت ، وارتأى أنّه لابدّ أن ينتقل من المرحلة السلبية السرية الصامتة إلى مرحلة اعلان المعارضة ، خاصة وإنّه أدرك أن خصومه عن دوره في تأليب الأُمّة ضدهم وتحشيد غضبها وإثارة سخطها.

مقدمة :

أنّ كلمة حق أمام سلطان جائر هي أفضل الجهاد ، وأن الجهاد بالمال يتقدم في كثير من الاَحيان على الجهاد بالنفس في محكم كتاب الله العزيز((الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله)) التوبة : ٢٠ ، وإن مطبات الجهاد السياسي أحياناً أصعب وأعقد من لحظات المواجهة الواضحة مع الاَعداء ، وخاصة إذا كان رمز هذا النوع من الجهاد مطالباً بحقن دماء شيعته أو حفظ بقيتهم أو تدبير دورهم في مواجهة طاغوت لا يعرف قلبه الرحمة ولا يهمّه أن يُجهز عليهم جميعاً دون أن يرفّ له جفن إذا ماهمسوا ضده بقول أو انبروا له بفعل أو عمل...هذا الخانق المؤلم بين الخيارين : خيار الاستشهاد والتضحية ، أو خيار الصبر ، الذي وجد الإمام السجاد(عليه السلام) نفسه مضطراً إليه بعد أن أنجاه الله تعالى من موت أكيد مع إخوته وأبناء عمومته

بسبب المرض الذي أقعده عن حمل السلاح في يوم الطفوف ، وهو الخيار المرّ الذي اضطرّ عليه السلام لسلوكه لاستكمال الدور الرسالي ، في ترسيخ قيم أهل البيت وكشف الشرعية المزيّفة لاَدعياء الدين وفضح مدّعياتهم ، وسعيه الحثيث لتشكيل الجماعة الصالحة .

المبحث الأول

أولاً : الموقف السياسي الأول للإمام السجاد (عليه السلام)

لعلّ أول موقف سياسي حكيم كان على الإمام (عليه السلام) أن يتخذه بعد عودته إلى المدينة ، وبعد أيام من مشاعر الحداد التي أجّجها في نفوس أهلها ، والتي قدّر عليه السلام أنّها لم تتعدّ أن تكون حالات عاطفية صادقة ، تفجّرت بسبب شعورهم بالإثم جرّاء عدم خروجهم مع الإمام الحسين (عليه السلام) ونصرته أولاً ، وفجيعتهم بمصرعه ثانياً، هو أن ينأى بعيداً عن الناس الذين أدرك ضعفهم وخواءهم في لحظات المواجهة الساخنة مع الاَعداء ، فاتخذ خيمةً في البادية ، واستظلّ ببيتٍ من بيوت الشعر في فيافيها مع مجموعةٍ من عياله وأهل بيته وخلص شيعته . وربما جاء هذا الموقف ليعمّق الشعور بالذنب لدى أهل المدينة الذين خذلوا أباه أولاً ، ولكي يتحاشى الاصطدام بالحكّام الاَمويين الذين سيستهدفونه حتماً إذا أحسوا منه أي بادرةٍ أو همسةٍ للتحريض ضد حكمهم ثانياً، (فبقي خارج المدينة من سنة (٦١ هـ) إلى نهاية سنة (٦٣ هـ) ، وكان يسير من البادية بمقامه إلى العراق زائراً لاَبيه وجده عليهما السلام ولا يُشعر بذلك من فعله(١)، وحين أحسّ الاَمويون بتململ أهل المدينة جاءت واقعة الحرّة المعروفة التي استباح فيها مسلم بن عقبة هذه المدينة ، وأباح فيها القتل والسبي والاعتداء الوحشي، ويؤكد الشيخ المفيد في إرشاده ، أنّ مسرف بن عقبة هذا كان في بدايته لا يريد إلاّ قتل علي بن الحسين (عليه السلام)، وحين لم يجد لقتله حجّة، اكتفى أن أباح المدينة ثلاثة أيام بأمر يزيد، وقد انفضّت فيها ألف عذراء ، وولد مئات الاَبناء لا يُعرف آباؤهم ، وكان من بينهن بنات ونساء صحابة. (٢)

نعم ، اتخذ الإمام السجاد (عليه السلام) تلك الخيمة النائية مأوىً له ، ولم يجد هذا (المسرف) سبباً للإجهاز على الإمام عليه السلام وأهل بيته ، بل صار الإمام ملاذاً لمن التحق به من المؤمنين هرباً من (إسراف) الجيش الأموي ووحشيته وبربريته. وكان ممن لاذ به من الأمويين عائلة مروان بن الحكم وزوجته عائشة بنت عثمان بن عفان ـ وأكثر من أربعمائة مُنافية (من آل عبد مناف) كان (عليه السلام)يعولهُنّ إلى أن تفرّق الجيش. (٣)

ولذلك حين جاؤوه أهل المدينة مبايعين يقولون : ((... فمرنا بأمرك ، فإنّا حرب لحربك ، وسلمٌ لسلمك) ، قال لهم : « هيهات .. ومسألتي ألاّ تكونوا لنا ولا علينا .. » وأخذ عليهم عهداً أن يأخذوا جانب الحياد فقط. (٤)

ثانياً : الموقف من الحركات الثورية

رصد الإمام السجاد (عليه السلام) عن كثب أنباء الطلائع التي كانت تخرج بين مدة وأُخرى لتقويض الحكم الأموي ، لا سيّما تلك الثورات التي رفعت شعارات الثأر للإمام الحسين عليه السلام ، وإن كان بقي بعيداً عن بعضها ؛ إذ لم يرد عليه السلام أن يتحمّل مسؤولية الدماء التي ستُراق فيها بغير حق أولاً ، ولعدم تنسيق رجالها معه ثانياً ، وعدم وضوح منطلقاتها وأهدافها ، والتمثيل الذي ينفَّذ بقتلاها ثالثاً ورابعاً..زيفهم ، لا سيّما تلك الثورات التي رفعت شعارات الثأر للإمام الحسين عليه السلام ، وإن كان بقي بعيداً عن بعضها ؛ إذ لم يرد عليه السلام أن يتحمّل مسؤولية الدماء التي ستُراق فيها بغير حق أولاً ، ولعدم تنسيق رجالها معه ثانياً ، وعدم وضوح منطلقاتها وأهدافها.

ولعلّ ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، وكذلك ثورة المختار ، كانتا أبرز الأمثلة على تعضيد الإمام سرّاً لمثل تلك الحركات ، ولو بدرجة من الدرجات ، رغم أنّه لم يعلن ارتباطه المباشر معها ، ولكنه ترك الأمر لعمّه محمد بن الحنفية لكي يتعامل مع روادها بحكمة ودقّة ، مشيراً إليه بإيجاز : « يا عم ، لو

أن عبداً تعصّب لنا أهل البيت ، لوجب على الناس مؤازرته ، وقد أوليتُك هذا الأمر ، فأصنع ما شئت .. » (٥)

ويُشير أحد المؤرخين أنّه ((لما أرسل المختار برؤوس قتلة الإِمام الحسين (عليه السلام) وأولاده وأصحابه إلى الإِمام ، خرّ الإِمام ساجداً ودعا له وجزّاه خيراً))

أما ما ينقله بعض المؤرخين من سلبية موقف الإِمام السجاد من المختار وثورته يمكن قراءته من ثلاثة أبعاد :

الأول : هو محاولة هؤلاء المؤرخين تشويه تلك الثورة التي أدخلت السرور على بنات المصطفى ونساء الرسالة .

الثاني : هو قيام الإِمام السجاد عليه السلام بأداء دور كان لابدّ له أن يؤديه ، لكي يُبعد عن أذهان الاَمويين المتربصين به ارتباطه بهذا الثائر ، ومن ثم تبرير استهدافه وقتله من قبلهم ، أو السماح لهم بتسويغ هذا الفعل ، أي منحهم التبرير لذلك ، قبل إتمام أهدافه واستكمال المهمة التي يريد أن يأتي إلى آخر مشوارها .

الثالث : عدم تحمّله عليه السلام مسؤولية الإِسراف في القتل الذي يُرافق الثورات ، وخاصة تلك البعيدة عنه ، والتي لم ينسّق رجالها معه لا في الإِعداد ولا في التنفيذ. (٦)

ومن هنا كان موقفه المعروف من ثورة المختار حين جزّاه خيراً من جهة ، ولكنه رفض استلام أمواله أو قبول بيعته من جهة أُخرى ، كما تنص الروايات التاريخية .

ثالثاً : الموقف من الظالمين

١–موقفه من عبدالملك وهشام :

رأى الإِمام (عليه السلام) أن الخطوة الأُولى التي عليه التصدي لها رغم وعورتها وخطورتها هو كسر هيبة الحكام الاَمويين وفضح زيف أعمالهم .

فقد روي أن عبدالملك بن مروان كان يطوف بالبيت العتيق ، وعلي بن الحسين يطوف أمامه غير آبه له . فقال عبد الملك من هذا الذي يطوف بين أيدينا ؟ ولا يلتفت إلينا ؟ فقيل له : إنّه علي بن الحسين.

فجلس عبدالملك مكانه غاضباً وقال : ردّوه إليَّ فردّوه ، فقال له : يا علي بن الحسين ، إنّي لستُ قاتل أبيك ! فما يمنعك من السير إلينا ؟ ! فأجابه عليه السلام : « إنّ قاتل أبي أفسد بما فعله ـ دنياه عليه ، وأفسد أبي عليه آخرته. فإن أحببت أن تكون هو فكن.. » . (٧)

ويبدو من هذه السطور أن الإمام كان مقاطعاً عبدالملك ، وأن مقاطعته ليست مجرّد عزلة أو مقاطعة عابرة ، وإنّما مقصودة ومتعمّدة ، وتعبّر عن موقف سياسي ومعارض المسموح به في ذلك العهد. كما أن قول عبدالملك : (إنّي لست قاتل أبيك) يتضمّن الغلظة ويوحي بالتهديد والتوّعد والإرهاب. في حين كان ردّ الإمام : « إن أحببت أن تكون هو فكن » يعبّر عن تحدٍّ سافر لسلطة خليفة غاشم .

نستخلص مما تقدم أن الإمام (عليه السلام) لم يكن في هذه المرحلة ذلك المهادن ، المنعزل عن الدنيا .

وفي موقفه (عليه السلام) مع عبدالملك في قصة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الموجود عنده ، والذي حاول عبدالملك اجبار الإمام(عليه السلام) بالتنازل عن ذلك السيف و أخذه منه ، لما فيه من رمزية يمكن أن يوظّفها الحاكم الظالم إلى شرعيته ، فأبى الإمام (عليه السلام) إعطاء السيف ، فكتب إليه عبدالملك يهدّده بأن يقطع رزقه من بيت المال... فأجاب الإمام عليه السلام : « أما بعد.. فإنّ الله تعالى ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون ، والرزق من حيث لا يحتسبون ، وقال جلّ ذكره : (إن الله لا يحبُّ كل خوّان كفور) ، ثم قال : فانُظر أيّنا أولى بهذه الآية ؟ » . (٨)

ويظهر من رفض الإمام (عليه السلام) إعطاء السيف ، وتوظيفه لهذه الآية الكريمة ، وقوله : (أيّنا أولى بها) ! واستصغاره لتهديد الخليفة بقطع رزقه من بيت المال واستهانته بطلبه ، أن القطيعة بالغ حدّها بين الطرفين ، وأن المواجهة في أقصاها ، وأن نصيحة الحجاج الثقفي الذي كتب إلى عبدالملك ما نصه (إنّ أردت

أن يثبت ملكك ، فاقتل علي بن الحسين). (٩) ، إنّما تعبّر تعبيراً دقيقاً هي الأُخرى ، عن شدّة المواجهة ، وعمق الأَزمة ، وخطورة الموقف.

ومن المهم الإشارة إلى سجن الفرزدق على قصيدة شعرية عدوها إهانة لمقام الخلافة ، فيما سارع الإِمام السجاد عليه السلام للاتصال بالفرزدق وهو في السجن ، ووصله بشيء رمزي من المال تعضيداً له على موقفه ، ومكافأة لموقفه الشجاع ذاك .

٢-الموقف من أعوان الظلمة

فكانت الخطوة الثانية هي : تنبيه الأَمّة على أنّ أيّ تعامل مع الحكام وأية مساعدة لهم ، حتّى في أبسط الأَمور وأدنى الأَشياء يُعد تقوية لحكومتهم ، ومشاركةً لهم في جناياتهم لأَنّ تقديم أيّ خدمةٍ لهم وإن كانت ضئيلة جدّاً يكون - بقدره - تمكيناً ومعاضدةً لهم ، فراح عليه السلام يؤكد على لعن (من لاق لهم دواة، أو قطّ لهم قلماً ، أو خاط لهم ثوباً ، أو ناولهم عصاً) ، بل حرّم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم (١٠)

اعتمد الإِمام السجاد (عليه السلام) هذه القاعدة الإِسلامية ، وجعلها ركيزة مهمة في مقاومة

النظام الظالم الذين تمرّر السلطة الظالمة مشاريعها من خلال تزلّفهم وتلميعهم لإجراءات هذه السلطة لدى العوام .وكان الإِمام السجاد (عليه السلام) كثيراً ما يقول : « العامل بالظلم والمعين له ، والراضي به شركاء ثلاثة ». (١١)

وكان (عليه السلام) يحذّر الناس من التورّط في أعمال الظلم ، و لو التواجد في مجالسهم ومصاحبتهم ، فكان عليه السلام يقول « ... ولا يقول رجل في رجل من الخير مالا يعلم ، إلاّ أوشك أن يقول فيه من الشرّ مالا يعلم ، ولا اصطحب اثنان على غير طاعة الله إلاّ أوشك أن يتفرّقا على غير طاعة الله... » (١٢)

قد يتصوّر البعض أن مجالسة أولئك الحكّام الظالمين لا يضرّ شيئاً ، وإنّما يفيد خدمة أو تقديم خدمة للطرفين : للظالم بتخفيف ظلمه ، ولأَعوان الصالح

وأصحابه ليكفيهم شرّه ويدفع عنهم وعن إخوانهم ضرره ، وما دروا ، خبث الظالم باستغلال صلاحهم وأسمائهم وسمعتهم في تنفيذ ما لا يرضي الله ، وتمريره على البسطاء من الناس والتغرير بهم...

ولعلّ أكثر مواقف الإمام (عليه السلام) وضوحاً في مساعيه لسلخ الوعّاظ عن حاشية الحاكم الظالم هو موقفه عليه السلام من الزهري الذي أكسبه الاَمويون شهرة عظيمة ، وروّجوا له كثيراً ، حيث شدّد هو والعلماء الصالحون النكير عليه لقربه من بني أمية والسكوت عن جرائمهم وشنائعهم ، ففيما كان هو يبرّر صحبته لهم بقوله : (أنا شريك في خيرهم دون شرهم). كان العلماء يردّون عليه بقولهم : (ألا ترى ماهم فيه فتسكت ؟!) (١٣) فيسكت ولا يحير جواباً.

ومن حوارات الإمام (عليه السلام) ردّه على الزهري هذا الذي قال للإمام يوماً: (كان معاوية يُسكته الحلم ، ويُنطقه العلم) !! فقال الإمام : « كذبت يا زهري ، كان يُسكته الحصر ، وينطقه البطَر » (١٤)

وأكثر من ذلك تقريعه الزهري وعروة بن الزبير وهما جالسان في مسجد المدينة ينالان من الإمام علي عليه السلام ، فبلغه ذلك ، فجاء حتى وقف عليهما ، فقال : « أما أنت يا عروة فإنّ أبي حاكم أباك الى الله ، فحكم لاَبي على أبيك ! وأما أنت يا زهري فلو كنت بمكة لاَريتك كِبرَ أبيك » (١٥)

ونتوقف عند قبس من كلماته فكان دعائه السلاح الفتاك « اللهمّ إنّ الظلَمة جحدوا آياتك ، وكفروا بكتابك ، وكذّبوا رسلك واستنكفوا عن عبادتك ، ورغبوا عن ملّة خليلك ، وبدّلوا ما جاء به رسولك ، وشرّعوا غير دينك ، واقتدوا بغير هدالك ، واستنّوا بغير سنّتك ، وتعدّوا حدودك ، وتعاونوا على إطفاء نورك ، وصدّوا عن سبيلك ، وكفروا نعماءك ، ولم يذكروا آلاءك ، وأمنوا مكرك ، وقست قلوبهم عن ذكرك ، واجترأوا على معصيتك ، ولم يخافوا مقتك ، ولم يحذروا بأسك واغترّوا بنعمتك... » .

ويكمل قائلاً :-

« اللهمّ إنّهم اتخذوا دينك دغلاً ، ومالك دولاً ، وعبادك خولاً... اللهمّ افتِتْ أعضادهم واقهر جبابرتهم ، واجعل الدائرة عليهم ، وأقضض بنيانهم ، وخالف بين كلمتهم ، وفرّق جمعهم ، وشتّت شملهم ، واجعل بأسهم بينهم ، وابعث عليهم عذاباً من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، واسفك بأيدي المؤمنين دماءهم ، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم... ».

ونختلف مع البعض اللذين أدعوا: « أنّ الشيعة بمصرع الحسين افتقدت الزعيم الذي يكون محوراً لجماعتهم وتنظيمهم والذي يقودهم إلى تحقيق تعاليمهم ومبادئهم ، وانصرف الإمام علي زين العابدين عن السياسة إلى الدين وعبادة الله عزَّ وجلّ وأصبح للشيعة زعيماً روحياً ولكنه لم يكن الثائر السياسي الذي يتزعم جماعة الشيعة.. »

وتضيف قائلة :

« وحاول المختار بن أبي عبيدة الثقفي أن ينتزع علياً من حياة التعبّد والاشتغال بالعلم إلى ميادين السياسة دون جدوى... » (١٦)

المبحث الثاني: كتاب الإمام السجاد عليه السلام إلى الزهري :

بعث الإمام السجاد (عليه السلام) برسالة إلى الزهري الذي كان يستميت في دفاعه عن بني أمية .

قال الغزالي ما نصه : (إنّ هذه الرسالة كُتبت إلى الزهري لما خالط السلطان)(١٧)، كما رواها ابن شعبة (١٨) وآخرون.. وفيما يلي بعض نصوص هذه الوثيقة السياسية: « ... أما بعد.. كفانا الله وإياك من الفتن ، ورحمك من النار ، واعلم أن أدنى ما كتمت ، وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم ، وسهلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت ، وإجابتك له حين دُعيت. فما أخوفني أن تبوء بإثمك غداً مع الخونة ، وأن تُسأل عما أخذتَ بإعانتك على ظلم الظلمة ! إنّك

أخذتَ ماليس لك ممن أعطاك ، ودنوت ممن لم يردّ على أحد حقاً ، ولم تردّ باطلاً حين أدناك ، وأحببت من حادّ الله... » .

ثم يتساءل الإمام السجاد (عليه السلام) مستنكراً مستفهماً دقيقاً حين يقول « أوليس بدعائهم إياك حين دعوك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم ، وسلّماً إلى ضلالتهم.. » ثم يتساءل الإمام (عليه السلام) قائلاً : « داعياً إلى غيّهم ، سالكاً سبيلهم ، يدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم.. فما أخوفني أن تكون كما قال الله في كتابه : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) .. بعدها يذهب الإمام السجاد (عليه السلام) يحذّره الله والآخرة ، ويذكّره بما ينبغي أن يتذكّره ، أو يذكّر به فيقول : « إنّك لست في دار مقام ، أنت في دار قد آذنت برحيل ... تجهّز فقد دنا منك سفر بعيد ، وداو دينك فقد دخله سقم شديد ...ولا تحسب أني أردتُ توبيخك وتعنيفك وتعييرك ، لكني أردت أن يُنعش الله ما فات من رأيك ، ويردّ إليك ما عزب من دينك ، وذكرت قول الله تعالى : (وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين).أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرّة ؟ وما الناس فيه من البلاء والفتنة؟ ! ، فالله لنا ولك ، وهو المستعان... » .بعد ذلك يذهب الإمام السجاد (عليه السلام) محذّراً منذراً ، مذكّراً منبّهاً ، قائلاً : والله ما قمت لله مقاماً واحداً أحييت به له ديناً ! أو أمّتُ له فيه باطلاً ! ! أفهذا شكرك من استحملك ؟ ! ما أخوفني أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه : ((أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً)) مريم :٥٩ ، استحملك كتابه ، واستودعك علمه ، فأضعتهما ! فنحمد الله الذي عافانا مما ابتلاك به ! والسلام. (١٩)

وهكذا يتّضح من سطور هذه الرسالة وحروفها وكلماتها ، أنّ الإمام السجاد (عليه السلام) دخل في مواجهة مكشوفة مع السلطة الحاكمة ، عبر تنديده العلني هذا بأحد رموزها عبر تحذيره وإنذاره وتوبيخه وتأنيبه له : « مالك لا تنتبه

من نعستك ؟ ولا تستقيل من عثرتك؟» ... «أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرّة؟ وما الناس فيه من البلاء والفتنة؟» .

إذن ، وبإيجاز كشف الإمام(عليه السلام) ، من خلال هذه الرسالة ، كل الخيوط المخفية التي يتستر بها وعّاظ السلاطين الذين « جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم وسلّماً إلى ضلالتهم » ! وغير ذلك مما يعدّ وثيقة سياسية دقيقة جداً ومعبّرة جداً لكلِّ من يحاول تبرير قربه من الظلمة أو إدعائه إصلاحهم بوعظه وإرشاده ونصائحه...

ولعلّ الموقف من أعوان الظلمة هذا هو أدّق الخيوط في نسيج التعامل السياسي والسير فيه بدّقة وحذر.

المبحث الثالث: الإمام السجاد (عليه السلام) وثورته الإصلاحية

عاش الإمام زين العابدين (عليه السلام) في مراحل قاسية مرت على قادة أهل البيت النبوي الشريف (عليهم السلام)، حيث بدأت الانحرافات السياسية والعقائدية والفكرية تأخذ شكلاً صريحاً واضحاً بسبب سياسات الحكام الأمويين وأمرائهم وتابعيهم ، إذ شهد الإمام السجاد فاجعة كربلاء وقتل أبيه الحسين سبط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأخوته وأهل بيته من قبل الحكم الأموي ، لكن الإمام (عليه السلام) لم يقف مكتوف الأيدي في خضم تلك الأحداث المريرة المؤلمة فقد هيأ (عليه السلام) لبدأ ثورة إصلاحية روحية ثقافية فكرية علمية متمثلة بتوسيع القاعدة الشعبة الموالية لأهل البيت (عليهم السلام)، والعمل على رفع مستوى الوعي الإسلاميّ ، والانفتاح العلمي في قطاعات الأمة المختلفة ، وخلق قيادات فكرية متميزة من حفاظ وفقهاء وأدباء ومفكرين ومؤرخين ، وكان فيهم الصحابي الجليل والتابعي بإحسان وهذه القيادات تحمل الفكر السياسي الصميم وفق المنهج الإلهيّ والمحمديّ ، لا الفكر الذي يدور وفقا لمقتضيات السياسة والمزاجات والأهواء.(٢٠)

فقُدِّر للإمام زين العابدين (عليه السلام) أن يتسلم مسؤولياته القيادية والروحية بعد استشهاد أبيه الإمام الحسين (عليه السلام)، فمارسها خلال النصف الثاني من القرن الأول في مرحلة من أدق المراحل التي مرت بها الأمة وقتئذ ، وهي المرحلة التي أعقبت موجة الفتوح الأولى ، فقد امتدت هذه الموجة ، بزخمها الروحي وحماسها العسكري والعقائدي ، فزلزلت عروش الأكاسرة والقياصرة وضمت شعوباً مختلفة وبلاداً واسعة إلى الدعوة الجديدة ، وأصبح المسلمون قادة الجزء الأعظم من العالم المتمدن وقتئذ خلال نصف قرن (٢١)

وعلى الرغم من أن هذه القيادة ، جعلت من المسلمين قوة كبرى على الصعيد العالمي من الناحية السياسية والعسكرية ، فأنها عرضتهم لخطرين كبيرين خارج النطاق السياسيّ والعسكريّ ، وكان لا بدّ من البدء بعمل حاسم للوقوف في وجههما .

أحدهما : الخطر الذي نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوعة وأعراف تشريعية وأوضاع اجتماعية مختلفة ، بحكم تفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجاً ، وكان لا بد من عمل على الصعيد العلمي يؤكد في المسلمين أصالتهم الفكرية وشخصيتهم التشريعية المتميزة المستمدة من الكتاب والسنة ، وكان لابد من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية ضمن ذلك الإطار ، لكي يستطيعوا أن يحملوا مشعل الكتاب والسنة بروح المجتهد البصير والممارس الذكي الذي يستطيع أن يستنبط منها ما يفيده في كل ما يستجد له من حالات ، كان لابد إذن من تأصيل للشخصية الإسلامية ومن زرع بذور الاجتهاد (٢٢)

وأما الخطر الأخر : فقد نجم عن موجة الرخاء التي سادت المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الامتداد الهائل ، لان موجات الرخاء تعرض أي مجتمع إلى خطر الانسياق مع ملذات الدنيا والإسراف في زينة هذه الحياة المحدودة وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقية والصلة الروحية بالله واليوم الأخر وبما

تضعه هذه الصلة أمام الإنسان من أهداف كبيرة . وقد أحس الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) بهذا الخطر وبدأ بعلاجه (٢٣) .

وهذا ما قام به الإمام السجاد (عليه السلام)، فكان يتخذ من مسجد جده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منطلق لثورته الإصلاحية والعلمية ، فقد بدأ حلقة من البحث والدرس في مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحدث الناس بصنوف المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين ، ويمرن النابهين منهم على التفقه والاستنباط ، فعن سعيد بن المسيب قال : كان علي بن الحسين (عليه السلام) يعظ الناس ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في الآخرة في كل جمعة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (٢٤) ، وقد تخرَّج من هذه الحلقة عدد مهم من فقهاء المسلمين وكانت هذه الحلقة هي المنطلق لما نشأ بعد ذلك من مدارس الفقه والأساس لحركته الناشطة (٢٥)

إن الإمام السجاد (عليه السلام)كان قائدا للطليعة الإسلامية الرسالية ، وبجهده وبمساعدتهم استطاع معالجة الأزمة الروحية والفكرية التي واجهتها امة الإسلام آنذاك ، لقد زرع علي بن الحسين (عليه السلام) بذرة الحرية في نفوس أفراد الأمة وهدم الهوة الكبيرة بين العرب وهم الأسياد آنذاك وبين غير العرب الذين دخلوا الإسلام حديثا واصطدموا بممارسات المسلمين العرب وأركان السلطة الأموية (٢٦)

فبدء الإمام السجاد (عليه السلام) بثورته الإصلاحية من القرآن الكريم ، بكونه الوحي الإلهيّ المباشر ، والمصدر الأساسيّ المقدّس بنصّه وفصّه ، والذي اتفقت كلمة المسلمين على حجيته وتعظيمه وتقديسه ، فهو الحجّة عند الجميع ، والفيصل الذي لا يردّ حكمه أحد ممن يلتزم بالإسلام ديناً وبمحمّد (صلى الله عليه وسلم) نبيّاً.(٢٧)

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " فإذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع ، وشاهد صدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل ، ظاهره حكم ، وباطنه علم ، لا تحصى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، وهو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به فاز"(٢٨)، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): " ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه ، وسراجا لا يخبو توقده ، وبحرا لا يدرك قعره ، ومنهاجا لا يضل نهجه ، وشعاعا لا يظلم ضوءه ، وفرقانا لا يخمد برهانه ، وتبيانا لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزا لا تهزم أنصاره ، وحقا لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المستنزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعا لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونورا ليس معه ظلمة وحبلا وثيقا عروته ، ومعقلا منيعا ذروته ، وعزا لمن تولاه ، وسلما لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذرا لمن انتحله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وحاملا لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلام ، وعلما لمن وعى ، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى"(٢٩).

فكان الإمام السجاد (عليه السلام) ينطلق من القرآن الكريم في إرشاد الأمة إلى ما يُحييها ، ويطبّق مفاهيمه على حياتهم . فقام الإمام زين العابدين (عليه السلام) بجهد وافر في هذا المجال(٣٠).

قال الإمام السجاد (عليه السلام): عليك بالقرآن فان الله خلق الجنة بيده لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل ملاطها المسك وترابها الزعفران وحصاها اللؤلؤ

وجعل درجاتها على قدر آيات القرآن فمن قرأ القرآن قال له اقرأ وارق ومن دخل منهم الجنة لم يكن أحد في الجنة أعلى درجة منه ما خلا النبيين والصديقين(٣١).

الخاتمة

إن الإمام السجّاد (عليه السلام) كان مرجعاً في السياسة والفقه والحديث وعلومه ، بما يرويه عن أبيه الإمام الحسين (عليه السلام)، عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فكان الإمام السجاد (عليه السلام)، ثقة مأمونا ، كثير الحديث ، عاليا ، رفيعاً ، ورعاً ، بنى الأمام علي بن الحسين (عليه السلام) أفضل ثقافة إسلامية رسالية متشعبة في شعبتين :

الأولى : يتمثل ببابها الأكبر وهو جهاد النفس من خلال تقوى الله والورع عن ممارسة المحارم الفردية والجماعية ، ومن خلال العبادة المخلصة والتي كان هو رائدها ورمزها الأول .

والثانية : من خلال العمل الدؤوب واليومي من اجل بناءٍ لا يهدف إلى السلطة من اجل السلطة ، بل يهدف لتربية جيل يقود الأمة في مختلف المجالات فأي شخصية غير سيد الساجدين يستطيع تربية محمد الباقر (عليه السلام) الذي بقر العلم بقرا وفي ذات الوقت ربى فقيها مجاهدا مثل زيد الشهيد ، وجابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي ، والزهري الذي يعدّه من المشايخ الثقات عند جميع المسلمين ، وأبو حمزة الثمالي ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، والمختار بن عبيد الله الثقفي ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبهان الكناني ، وأبو خالد الكابلي ، والفرزدق ..... لقد سجل التاريخ صفحات نيرة مضيئة من سيرة هذا الإمام العظيم المبارك ، في علمه وعمله وخدمته للناس ، وعبادته لرب العالمين .

الهوامش

(١) ابن طاووس، رضي الدين ابي القاسم علي (ت٦٦٤هـ) فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام مؤسسه تحقيقات و نشر معارف اهل البيت (ع) ص ٤٣.

(٢) البيهقي ،أحمد بن الحسين أبو بكر(ت: ٤٥٨هـ) ،دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، المحقق: عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية ، دار الريان للتراث – الطبعة الأولى ، ج٦ ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ، ص ٤٧٥.

(٣) المفيد ، محمد بن محمد البغدادي . الارشاد ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٢م ، ص ٢٩٢.

(٤) الطبرسي ، أبو منصور أحمد بن علي ت (٥٦٠ هـ) . الاحتجاج على أهل اللجاج ، تعليق : محمد باقر الموسوي ، مؤسسة الاعلمي ، ط٣ ، بيروت ، ٢٠٠٠م ، ص ١٥٧ .

(٥) اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن جعفر ابن وهب(ت٢٩٢ هـ . تاريخ اليعقوبي ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص ٢٧٠ .

(٦) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٧) المجلسي ، محمد باقر بن محمد التقي (ت، ١١١١هـ)بحار الأنوار الجامعة لدرر الائمة الاطهار ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٣ ٤٦ : ١٢٠. الحر العاملي محمد بن الحسن (ت، ١١٠٤هـ)،إثبات الهداة ، المطبعة العلمية ، قم ،بلا| ٣ : ١٥.

(٨) المجلسي ، بحار الأنوار ٤٦ : ٩٥. والآية من سورة الحج٢٢ | ٣٨.

(٩) المجلسي ، بحار الأنوار ٤٦ : ٢٨ .

(١٠) الحراني ، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة ت(٣٨١ هـ). تحف العقول عن آل الرسول ؛ دار المجتبى ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٦م ، ص ٢٧٦ .

(١١) المقرم، السيّد عبدالرزّاق الموسوي المقرَّم (ت ،١٣٩١ هـ) . الإمام زين العابدين(عليه السلام). ط٢ ، مؤسسة الوفاء، . بيروت. سنة ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م، ص٤٢.

(١٢) ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد (ت، ٦٨١هـ) . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، ج٣ ، دار صادر ، بيروت ، ص٣٧١.

(١٣) ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد (ت، ٦٨١هـ)وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، بلا، ٣٧١/٣

(١٤) السبحاني ، الشيخ جعفر .الاعتصام بالكتاب والسنّة ، ج٢ ، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السّلام) ، إيران ، قم المقدسة ، ١٤١٤هـ، ص ٢٥٧.

(١٥) أبن أبي الحديد ،عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين ، (ت،: ٦٥٦) . شرح نهج البلاغة ج٤، (د.ن) ، (د.ت) ، ص١٠٢ .

(١٦) الليثي ، د. سميرة . جهاد الشيعة ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ١٣٩٦ هـ ، ص ٢٩.

(١٧) الغزالي، هبه الله الشيخ ت (٥٠٥ هـ.) . إحياء علوم الدين ط١ ، طبع دار الكتب العلمية، ج٢ ، ١٤٢٣ هـ ، ص ١٤٣.

(١٨) الحّراني ، أبو محمد الحسن . تحف العقول ، ج٣ ، مؤسسة الفكر الاسلامي، بيروت– لبنان ، د.ت ، ص ٢٦٠ .

(١٩) الحراني ، المصدر السابق ، ص٢٧٤ .

(٢٠) الساعدي ، صالح بن مهدي . شرح رسالة الحقوق ؛ تحقيق حسام الساعدي ، دار المرتضى ، بيروت ، ٢٠٠٥م ، ص ٣٥ .

(٢١) الصدر ، محمد باقر : مقدمة الصحيفة السجادية الكاملة ؛ دار المرتضى ، بيروت ، ٢٠٠٧م، ص ١٥ .

(٢٢) الصدر ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٢٣) الصدر ، المصدر نفسه ، ص ١٦ .

(٢٤) الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي ت (٣٢٩ هـ) . الكافي ، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري ، ج٢ ، ط٣ ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٨٨هـ ، ص ٧٢ .

(٢٥) الصدر ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٢٦) الصافي ، عبد الجبار آل السيد جاسم . الفريضة الغائبة ، مؤسسة عاشوراء ،٢٠٠٤ م ، ص ١٥٣ .

(٢٧) الجلالي ، محمد رضا الحسيني . جهاد الإمام السجاد ؛ دار الحديث الثقافية ، قم ، ١٤١٨هـ ، ص ٨٤ .

(٢٨) الحائري ، محمد مهدي . شجرة طوبى ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف الأشرف ، ج٢ ، ١٣٨٥هـ ، ص ٤٤٢ .

(٢٩) الشريف الرضي ، أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي الحسيني الموسوي ت (٣٥٩ هـ) . نهج البلاغة ؛ شرح محمد عبدة مفتي الديار المصرية ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨م ، ص ٣٤٢ .

(٣٠) الجلالي ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣١) القمي، علي بن إبراهيم بن هاشم أبو الحسن (ت٣٠٧هـ) . تفسير القمي ، صححه وقدم له وعلق عليه : طيب الله الموسوي الجزائري ، مطبعة النجف ، ج٢ ، ١٣٨٧هـ ، ص ٣٦٠.

المصادر

- القرآن الكريم

١– أبي الحديد،عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين، (ت،: ٦٥٦) . شرح نهج البلاغة ج٤، (د.ن) ، (د.ت) .

٢– ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد (ت، ٦٨١هـ) . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، ج٣ ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

٣–ابن طاووس، رضي الدين ابي القاسم علي (ت٦٦٤هـ) فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام مؤسسه تحقيقات و نشر معارف اهل البيت (ع) .

٤–البيهقي ،أحمد بن الحسين أبو بكر(ت: ٤٥٨هـ) ،دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، المحقق: عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية ، دار الريان للتراث ، ط١ ، ج٦ ، ١٩٨٨ م .

٥– الجلالي ، محمد رضا الحسيني . جهاد الإمام السجاد ؛ دار الحديث الثقافية ، قم ، ١٤١٨هـ.

٦–الحائري ، محمد مهدي . شجرة طوبى ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف الأشرف ، ج٢ ، ١٣٨٥هـ .

٧–الحراني ، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة ت(٣٨١ هـ). تحف العقول عن آل الرسول ؛ دار المجتبى ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٦م .

٨–الساعدي ، صالح بن مهدي . شرح رسالة الحقوق ؛ تحقيق حسام الساعدي ، دار المرتضى ، بيروت ، ٢٠٠٥م .

٩–السبحاني ، الشيخ جعفر .الاعتصام بالكتاب والسنّة ، ج٢ ، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السّلام) ، إيران ، قم المقدسة ، ١٤١٤هـ.

١٠– الشريف الرضي ، أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي الحسيني الموسوي ت (٣٥٩ هـ) . نهج البلاغة ؛ شرح محمد عبدة مفتي الديار المصرية ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨م .

١١–الصافي ، عبد الجبار آل السيد جاسم . الفريضة الغائبة ، مؤسسة عاشوراء ،٢٠٠٤ م

١٢– الصدر ، محمد باقر : مقدمة الصحيفة السجادية الكاملة ؛ دار المرتضى ، بيروت ، ٢٠٠٧م.

١٣– الطبرسي ، أبو منصور أحمد بن علي ت (٥٦٠ هـ) . الاحتجاج على أهل اللجاج ، تعليق : محمد باقر الموسوي ، مؤسسة الاعلمي ، ط٣ ، بيروت ، ٢٠٠٠م .

١٤– الغزالي، هبه الله الشيخ ت (٥٠٥ هـ.) . إحياء علوم الدين ط١ ، طبع دار الكتب العلمية، ج٢ ، ١٤٢٣ هـ .

١٥– القمي، علي بن إبراهيم بن هاشم أبو الحسن (ت٣٠٧هـ) . تفسير القمي ، صححه وقدم له وعلق عليه : طيب الله الموسوي الجزائري ، مطبعة النجف ، ج٢ ، ١٣٨٧هـ .

١٦– الكليني ، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي ت (٣٢٩ هـ) . الكافي ، تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري ، ج٢ ، ط٣ ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٨٨هـ.

١٧– الليثي، د. سميرة . جهاد الشيعة ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ١٣٩٦ هـ .

١٨– المجلسي ، محمد باقر بن محمد التقي ت(١١١١هـ) . بحار الأنوار الجامعة لدرر الائمة الاطهار ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٩٨٣ .

١٩– المفيد ، محمد بن محمد البغدادي . الارشاد ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٢م .

المقرم، السيّد عبدالرزّاق الموسوي المقرَّم (ت ١٣٩١ هـ) . الإمام زين العابدين(عليه السلام). ط٢ ، مؤسسة الوفاء، . بيروت، ١٩٨٢ م.

٢٠– اليعقوبي ، احمد بن أبي يعقوب بن جعفر ابن وهب(ت٢٩٢ هـ) . تاريخ اليعقوبي ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ، ١٩٩٣م . .

The political thought of the imam of the carpet (peace be upon him)

M. Mazen Mazem Mahalla
Center for the Revival of Arab Scientific Heritage
Baghdad University

Abstract

A careful reading of some of the positions of the Imam of the carpet (peace be upon him) of the oppressors and their assistants, as well as his positions of some of the Shiite movements that erupted in his time, and how he moved from painful stage of reconciliation to the stage of hot confrontation, especially after he exhausted his silent rhetorical role, To move from the passive phase of the silent secret to the stage of the announcement of the opposition, especially as he realized that his opponents for his role in inciting the nation against them and to mobilize anger and provoke indignation.